ولا شكَّ في أن هذا التغيُّر الهائل يرجع إلى ما قامت عليه الدَّعوة الإسلاميَّة من مبادئ ومفاهيم جديدة لم يكن للعالم « المتحضِّر » آنذاك عهدٌ بها . ولكن علينا أن نذكر أن جانباً كبيراً من نجاح الدَّعوة الإسلاميَّة كان يرجع إلى شخصيَّة المبعوث بتلك الرِّسالة الجديدة ، الذي اصطفته الإرادة الإلهيَّة لكي يكون آخر من يحمل كلمة السَّماء إلى الأرض ؛ ذلك أن محمداً ﷺ لم يدَّع لنفسه أكثر مما وهبه الله : كان عبداً لله يبذل كلَّ ما وسعته طاقته البشريَّة لهداية قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويتعرَّض في سبيل ذلك لأذى المُعرِضين عنه الكافرين برسالته ، فيتحمَّل منهم ذلك في إنابة ورضاً بقضاء الله ، فيهتف مناجياً ربَّه في تواضع المقرِّ بعبوديَّته : « اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي وقلَّة حيلتي وهواني على النَّاس ، يا أرحمَ الرَّاحمين ، أنت ربُّ المُستَضْعَفِينَ ، وأنت ربِّي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي ، أم إلى عدوٍّ مَلَّكْتَهُ أمري ؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكنَّ عافيتك هي أوسع لي .»[1]

والقرآن الكريم نفسه يحثُّ الرَّسول ﷺ على أن يؤكِّد هذه الصِّفة البشريَّة فيه « قل سبحان ربِّي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (سورة الإسراء ، آية ٩٣) ، « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد » (سورة فُصِّلت ، آية ٦) ، وذلك حتى يُخلِص المؤمنون بدعوة الإسلام عبادَتَهم لله وحده ، ولا يقعوا فيما وقع فيه بعض أهل الدِّيانات السَّابِقة من عبادة أنبيائهم دون الله : « ما كان لبشر أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبوَّة ثم يقول للنَّاس كونوا عباداً لي من دون الله » (سورة آل عمران ، آية ٧٩) . وقد كان ذلك شيئاً جديداً استغربه أبناء جيله ممن رأوه يخالطهم ولا يترفَّع عليهم ، وكأنَّ الرَّسولَ في نظرهم لا يكون رسولاً إلا إذا أتى لهم بما يخرق نواميس الطَّبيعة ، مع أن

(١) هذه هي كلمات الرَّسول حينما توجَّه إلى الطَّائف ساعياً إلى قبيلة ثقيف لكي يقبلوا دعوة الإسلام ، فآذوه أذًى شديداً وأغروا به سُفَهاءَهم . انظر سيرة ابن هشام، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص٤٢ .